

## الفصل التاسع

أما أنا فلم أطعم النوم في هذا الليل الطويل الثقيل؛ لأن أختي لم تطعم فيه النوم، ولم يحتج طائري العزيز إلى أن يوقظني بندائه السريع البعيد، ولم أسمع منه هذا النداء كأنه عرف أنني ساهرة مؤرقة فلم يحتج إلى تنبيهي، فانطلق في الجو الفسيح ينبه غيري من الذين لم تؤرقهم الهموم والأحزان.

عدتُ إلى أختي كئيبة ضيقة الصدر متكلفة مع ذلك أن أخفي ما أجد من الكآبة وضيق الصدر، فأنبأتها بمقدم خالنا وبأننا مرتحلات في أكبر الظن إذا أسفر الصبح، وجعلت أزيّن لها الرحيل وركوب الإبل واجتياز القرى والنظر إلى هذه الحقول المنبثة بيننا وبين البحر، والنظر إلى هذا الخط من الماء الذي يفصل بيننا وبين بلادنا في الغرب، ننظر إليه مقبلات عليه بعد أن نظرنا إليه مدبرات عنه، ثم نعبر هذا البحر ونمشي على هذا السهل الجميل النضر الذي تلتقي فيه أرض الصحراء المجدبة وأرض الريف المخصبة؛ ثم نصعد تصعيداً هيناً كأنما نرقى في الدرج إلى هذه الهضبة الجميلة التي تقوم من ورائها قرينتنا وادعةً هادئة كأنها تحتمي بها من كل طارق يأتيها من الشرق. أنا أزيّن لها هذا كله بلساني، وأتكلف لها مظهر المراحة له المغتبطة به المقبلية عليه في سرور ولذة وشوق، والله يعلم إن كنتُ لمحزونة أشد الحزن مبتتسة أشد الابتئاس، تنازعني نفسي إلى ما ورائنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التي ترامت أطرافها، وامتدّت على ضفة النيل هادئة وادعة ناعمة بما فيها من حضارة وترف وثراء، والله يعلم أنني لم أكن مقبلة على هذا الغرب الذي سأدفع إليه إذا أسفر الصبح إلا برغمي وعلى أشد الكره مني، ما كنت أحفل بالحقول المنبثة، ولا أجد شوقاً إلى هذا الخط من الماء، ولا أجد كلفاً بهذا السهل الجميل النضر، ولا أجد رغبة في التصعيد الهين إلى هذه الهضبة المهيبة، ولا أجد حنيناً إلى هذه القرية الوادعة التي درجت فيها. إن هناك لحقولاً